من تراب (٥٧١) الإنسان ماضيه وحاضره ومستقبله (*)
الطريق (١)

هذه أسئلة تطرح نفسها على الإنسان حين يتعود التفكير والتأمل فى إطار العقل والفكر وحدهما وليس فى إطار العقائد والإيمان : هل الإكثار والتكاثر والتوالد والتناسل وما يقابلها من التقلص والذبول والفناء فى عالم الأحياء من الحيوان والنبات بما فيه من الآدميين كان دائمًا على هذا النحو الذى نشاهده الآن من بداية الحياة على هذه الأرض بهذه الغزارة والتكرار والإعادة ومع فروق فى التفاصيل والجزئيات غير قابلة للحصر ؟ وهل اختفاء بعض ما نسميه بالأجناس والأنواع وانقراضه شيء طبيعى يجرى حسب نواميس الكون بلا حركة مخالفة لتلك النواميس من جهة تقوى على هذه المخالفة ويتم نتيجة تغيير من التغييرات الطبيعية فى أساليب وسلوكيات الحياة ؟ لا يمس اعتمادها الكلى فى البقاء على الإكثار والتكاثر والتوالد وتتابع وتلاحق الأجيال لتحقيق البقاء المفروض أنه غرضها الكلى والأساسى ؟ وهل بقاء الأفراد الوقتى تغطى وقتيته كل المقصود المطلوب من وجوده ؛ أم ينتظر من وجوده فائض بعد

زواله ينتفع به الأحياء أو بعضهم فى حياتهم ويتركونه أو بعضه للأجيال اللاحقة .. وهل هذا الفائض المتوارث تنتفع به الحياة نفسها فى غرض فوق بقائها هو ارتقاؤها وخروجها من الاحتياج للتكرار والإعادة اللذين

(*) المال ١٣/ ٣/ ٢٠١٢

لا ينقطعان ؟ وكيف يُفسّر تطوّر حياة الآدميين الهائل فى منطق الإكثار والتكاثر والتوالد ونواميس حرص الحياة على البقاء ؟ وهل تطوّر الآدميين على هذا النحو واستمراره برغم ما يصاحبه من غباء وعثرات وردات هل هو خطوة تحاول الحياة أن تخطوها لإنقاذ نفسها من الآلية والرتابة والتلازم المطرد مع الفناء والعدم ؟ وهل انفتاح المعرفة البشرية الوضعية فى الخمسين سنة الأخيرة من القرن الماضى على الكون العظيم فى عالمى الذرة والفلك نتيجة اتساع طائلة حواس الآدمى إلى ما لا حد له بفضل الأدوات والأجهزة التى أتاحتها له تلك المعرفة هل هو بداية لانطلاق الحياة من الانحصار فى هذه الأرض والآلية والرتابة المشار إليها ؟ وهل هذا الهدف العالى السامى كان يلوح بصور مختلفة فى خلد الإنسان من قديم ويحاول تحقيقه بالالتجاء إلى أعماقه بكلياته وجزئياته فيما يعرف بالإيمان العميق وبالوحى وبالإلهام ويتحرى أقصى ما يمكنه من الإيثار والطهارة الداخلية وازدراء المغانم التى يتهافت عليها البشر عادة ؟!

هذه الأسئلة أجابت عليها من قديم، الأديان المعروفة إجابات فى عمومها متقاربة بأن إنسانية الآدمى خلقها خالقها متميزة بخصوصية عن غيرها من مخلوقاته حتى الملائكة بالمعرفة والعلم .. تجمع بين حياتين إحداهما على هذه الأرض وهى حياة عاملة ناصبة فانية . والأخرى حياة باقية فى عالم باقٍ فيه ثواب وعقاب عاجلان بلا إمهال أو إرجاء . وهذه إجابات وحى لا مجال لمناقشتها أو الاعتراض عليها هنا أو منا .. ولكننا نلفت النظر إلى أنها إجابات ترفع مكانة الآدمى على الجميع وتكاد تجعله تاليا دانيا من خالقه ومعرضًا للمحاسبة الشاملة والمعاقبة البالغة الشدة بمراعاة أن الدنيا هى هذه الأرض وأن الآدمى خليفة عليها محظور عليه الفساد والإفساد فيها .. ويبدو أن

العلاقة بين الدين والدنيا فى نظر الآدمى وبين دنياه وأخراه وبين الخالق عز وجل والآدميين المخلوقين علاقة مرنة غير جامدة متطورة باستمرار مع تطوّر الآدمى خلال وجوده على هذه الأرض ؛ أى تطوّر عقله وروحه التى هى مزيج شريف من عقله وفطنته وعاطفته .

فالآدمى كائن دائب الحركة فى داخله وفى خارجه يتطلع إلى معرفة أمور يراها هامة تشغله وتؤثر فيه وهى أمور قد تكون موجودة لا تتغير لكن رؤيته لها دائمة التغير ؛ وإن كان يتشبث بأنها رؤية ثابتة أبدية .. لأنه لا يفطن إلى أنه هو المتحرك ؛ وأنه هو الذى تتسع نظرته نتيجة الحركة والخبرة مع الزمن . وتشبثنا بإمكان وصولنا إلى اليقين الذى ليس بعده يقين آخر فيما نظن أننا نعرفه ؛ ربما لا يزيد على كونه صورة من صور الانتهاء للنهايات فى اجتهاد كل منا بحسب تقديره وفى ظروفه بعد أن بذل غاية وسعه وهو يريحنا حتماً من عناء مداومة البحث والاجتهاد .. وتمسك أغلبنا بالمبادئ والعقائد هو من هذا القبيل : يقين نلوذ فيه إلى البراحة الممتدة وإعراض بإصرار عن مجهود لم نعد نرحب ببذله لانعدام حاجتنا لمكابدته ؛ ولكننا قد نستيقظ فجأة فنجد أننا محتوم علينا الدفاع عن تلك المبادئ والعقائد بكل رخيص وغالٍ لدينا !!

من تراب الطريق (٥٧٢) الإنسان ماضيه وحاضره ومستقبله (*) (٢)

إلى الإصرار على ضرورة التمسك باليقين الذى لدينا على صورته الثابتة الباقية الصالحة لكل زمان ومكان يمكن أن يُعْزى إبعاد وابتعاد رجال الدين من كافة الأديان عن حكومة الشعوب الآن ومن أكثر من ألف سنة سابقة فى أغلب العالم المتحضر .. إذ يستحيل أن تظل معالم الشعوب الحية وسننها وعاداتها وأخلاقها ومرافقها وأغراضها وغاياتها على حال واحدة صالحة لكل شعب فى كل زمان وكل مكان .. إلاّ إذا تجمد العالم وتخشب . ولذلك انحصر الآن دور رجال الدين أى دين فى إرشاد الشعوب المتحضرة إلى ما تحسنه الحكومات من عالم الأخلاق والروح والسهر على ألا يضيع هذا العالم فى غمرات السياسة والاقتصاد وعراك الطوائف والطبقات .

لكن لم تشغل المعرفة الوضعية نفسها بهذه الأسئلة التى ذكرناها فكسبت وخسرت .. كسبت من تكريس جهود أصحابها للوقوف على حقيقة ما هو موجود مما يمكن أن تقع عليه حواس مباشرة أو بطريق غير مباشر وإمكانات استخدام الآدمى إياه فى أغراضه التى تتسع باستمرار هذه المعرفة .. ففزنا بحشد هائل جدًّا من المعلومات الموثوق بها ، واستخدمناه فعلاً فى حشد هائل جدًّا من الأغراض بعد آلاف السنين من الجهل والعجز ؛ لكننا خسرنا لتفاتنا الأساسى الذى كان يلازمنا فى الماضى المديد إلى أن الإنسان ليس

(*) المال ١٤ /٣ /٢٠١٢

الإله وينتهى إذا سلّم بأنه إله . وإلى أنه إذا لم يكن إلهًا كما كان يرى نفسه طوال الماضى المديد فهو أقرب ما يكون من المخلوقات إلى الإله الموجود فى أعماقه وفى الكون بأسره وقبل وجود الكون بأسره . فخسارة الإنسان لنفسه وصورته فى عين نفسه ؛ ولإحساسه بتميزه بها لا حد له عن سائر الكائنات الحية وغير الحية لا يعوضه أن يكون مجرد آلة للفهم موجودة على هذه الأرض التى ليست إلاّ ذرة أو هباءة فى الكون العظيم !

ويبدو أن شعور الآدمى العميق الذى يكاد يكون فطريا بتميزه على سائر الكائنات ؛ هو سر همته وتطلعه وطموحه ، ولا غنى عنه لتقدمه وتطوره .. وأن ضعف هذا الشعور وإهماله ونسيانه وراء التأخر والتدهور والانحطاط فى كل صوره . ولعل ولع البشر بالأمجاد الفردية والجماعية يكون فورة من فورات شعورنا بذلك التميز العميق الذى لا ندرى هل هو موهبة واستعداد ؛ أم اكتفاء من خبرة وامتلاك ماعندنا .. هذا وليس ما يطوف ببالنا أحيانا غير قليلة من الشعور بقصور يكاد يكون عاما فى الحكام والقادة والزعماء والرؤساء والمهمين فى عالم اليوم ليس هذا الشعور خيالاً مرجعه أننا بتنا أقرب إلى أولئك وإلى الإلمام بأحوالهم ونقائصهم وماضيهم وحاضرهم ممن سبقونا ؛ أو إلى أنهم باتوا أقل ابتعادًا وتكبرًا وتعاليًا وتعاظمًا من أمثالهم فى الماضى ؛ أو إلى أننا وإياهم نعيش فى مجتمعات تهاوت فيها الحدود والأسوار بين الطبقات ولم يعد للعائلات أو الثروات أن تنفرد بترشيح الأكابر والحاكمين ؛ أو إلى أن البشر الآن زاد عددهم عن الحد فازدحمت بهم الأرض وتاهت خيارهم فى شرارهم وقادروهم فى عاجزيهم ومخلصوهم وأمناؤهم فى ضجة وكثرة الوصوليين المتلاعبين .. وربما كان المرجع أو الأصل لذلك الشعور العام بقصور من يحكمون ويقودون ويترأسون هو أن الآدمى عمومًا قد تدهورت

قوة إحساسه بتميزه وتضاءلت ثقته فى كفاياته وقدراته بسبب طول مصاحبته للآلات والأجهزة الهائلة والطاقات التى تزيد على طاقته ملايين المرات ، وبسبب مداومة لفت انتباهه إلى التطور وتقلب وتفوق المعرفة الوضعية التى تدين لها حضارتنا بكل شىء تقريبا مما يجرى بيننا وحولنا من معالم وأنشطة حضارتنا .. هذه الحضارة التى نجحت فى دفعنا إلى الاهتمام اهتمامًا يكاد يكون طاغيًا بالأشياء كأشياء ، ومنها أجسامنا ومكونات أجسامنا القابلة للملاحظة حواسنا مباشرة أو عن طريق آلة أو جهاز أو أداة أقوى أو أدق أو أبعد نفاذًا وغورًا أو أكثر تحملاً وانتظامًا وثباتًا من حواسنا .. فإنسان اليوم لا يكاد يرى أو يرقب أو يعامل أو يصافى أو يخاصم إلاّ خارجه ، ولا يهتم ولا يفرح أو يحزن إلاّ لخارجه .. وصلاته بداخله تكاد تكون كلها ردود أفعال لما يحدث فى خارجه .. وهى ردود أفعال متفرقة فى الغالب لا تجمعها نظرة كلية تسوق صاحبها إلى إمعان الفكر وتقليب الرأى فيما يأتيه أو يقابله من هذا الاستغراق الشديد أو الاندفاق فى الاتجاه إلى خارجنا .. وهو ربما كان أكثر مما يلزم لاتزان وانتظام مسيرة التطور فى حياتنا لأنه مثله عطّل فى الماضى وهو يعطّل الآن انتفاع البشر بمزيتى الروية والتثبت اللازمتين للفطنة ، وهما أشد لزومًا للحكمة وسداد الرأى .

مـــــن تـــــراب الطـــريق

الإنسان (٥٧٣) ماضيه وحاضره ومستقبله (*) (٢)

الواقع الآن واقع الإنسان وما حوله ينطوى على اندفاع واستعجال وقلة مبالاة وطيش ، وعلى ابتسار للأحكام والحلول . ولعل هذا يكون من الاحتمالات الملازمة لما مُنِحناه من حرية الإرادة والاختيار .. هذه الحرية التى قد تتعرض من جانبنا للمغالاة والتطرف ؛ ثم تردهما فداحة النتائج أو الكوارث للاعتدال ، وأحيانا كثيرة إلى المبالغة فى الانقباض والتوجس بل والتيبس . وحدوث هذه الاحتمالات فى أيامنا كما حدث فى الماضى أمر متوقع .. ولكن نجاة البشرية من عواقبه وعقابيله ليست متوقعة بنفس القدر .. لأن كثرتنا الهائلة وكثرة حمقانا وشواذنا وساخطينا ويائسينا وانتهازيينا وحاقدينا أكثر ؛ وفرصتهم أوسع بكثير جدًا من أمثالهم فى الماضى القريب أو البعيد .

ويبدو أننا نوع من الأحياء غالب فى أساسه المغامرة أو المقامرة .. وفيها الكسب كبير إذا تحقق ، والخسارة أكبر إذا ذلت .. وعنصر الولع القليل أو الكثير بالمغامرة أو المقامرة والحظ ؛ لا يفارق كبيرنا وصغيرنا وعالمنا وجاهلنا وعاقلنا وغبينا .. نراه فى أحلامنا وخيالنا وآمالنا وفى مشروعاتنا وأزمة طاقتنا ومسابقاتنا واختياراتنا وفى جوائزنا وانتصاراتنا وأرباحنا وكسبنا وزيجاتنا ونجاتنا وعافيتنا وفى لهونا وجدنا .. ولا يكاد يوجد آدمى استغنى عن تمنى التوفيق أو النجاح لنفسه أو لولده أو لمن يسعى أو يقابل أو يفاوض أو حتى يلعب من أجل بلده .

(*) المال ١٥/٣/٢٠١٢

ويبدو أن المغامرة والمقامرة والحظ من ظواهر الخيال وحرية الإرادة والاختيار التى ميدانها ونطاقها واقعنا وخيالنا معًا .. وهذه بدورها ظواهر لحركة الحياة التى ليست فى واقعها إلا حركة وطاقة . ونحن لكى نعيش أعمارنا نسعى ونجتهد دون أن نشعر فى إبطاء هذه الحركة بربطها فى نظرنا بما نتصور ونرجو أنه ثابت لا يتغير ويقينى لا موضع فيه للخيال أو الاحتمال .. ولذا نحن لا نكف ما عشنا عن تصغير الكبير لكى نراه ونركن إلى ثبات رؤيتنا إياه وتكبير الصغير لكى نراه ونركن إلى ثباته أيضًا فى رؤيتنا ونظرنا .. وننسى تمامًا دأبنا الدائم على التصغير والتكبير للتوفيق بين طبيعة وعينا وإمكاناته وبين الكون الذى نواقعه عادة بحواسنا .. وخلال هاتين العمليتين يُجْرى خيالنا فى الصورة النهائية ما يشتهى من الحذف والإضافة والتعديل والتقويم دون أن نفقد عمومياتها التى يتعرف البشر عليها بها ؛ وهى عموميات بشرية فقط ؛ لا وزن لها لدى الكائنات الحية الأخرى .

ونحن لا نمثل فى نظرنا إلى الكون وما فيه لا نمثل إلا أنفسنا كبشر ؛ أو لا نستطيع حتى الآن أن نراه إلا بعيون البشر ، وعيوننا رأت وترى الكثير والعظيم والعجيب ؛ وربما تشهد الأكثر والأعظم والأعجب قريبا أو بعيدًا .. لكن ذلك قليل وصغير وهيّن جدًا بالنسبة إلى الكون الذى نحن اليوم فى بدايات معرفته معرفة بشرية موضوعية متعمقة قابلة باستمرار للتصحيح والتحسين بقدر ما يكون فى استطاعتنا من مثابرة وإصرار وأمانة ؛ وما يكون فى مقدور أجهزتنا وآلاتنا وأدواتنا من كفاية وتقدم .

فبشريتنا وإن كانت حدًّا أو حدودًا إلاّ أنها حدود واسعة قابلة للاتساع والتقدم والتطور المتجدد والمتكرر بشهادة ماضيها وحاضرها وتاريخها

الواعى اليقظ المتحمس .. هذا التاريخ الذى بدأ حاليًّا مع الكون ويبدأ من وعى راق منضبط يخطو بخطوات أفضل بها لا يمكن أن يوصف من كل تاريخها الواعى الماضى على هذه الأرض !!!